الباب الأول

" الدراسة النظرية "

- **مدخـــل** : الأندلس رؤية تاريخية.
- **الفصل الأول** : معالم الحياة العامة فى الأندلس .
- **الفصل الثانى** : الشعر الأندلسى واتجاهاته الموضوعية.
- **الفصل الثالث** : الموشحات الأندلسية والأزجال.
- **الفصل الرابع** : النثر الأندلسى وألوانه الفنية.

obeikandl.com

obeikandl.com

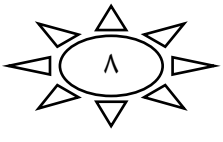

مدخـــل : الأندلس رؤية تاريخية .

الموقع الجغرافى :

تقع شبه الجزيرة الأيبيرية فى الطرف الجنوبى الغربى من قارة أوربا ، ويحيط بها اليابس من معظم الجهات باستثناء الجزء الشمإلي الشرقى ، وتطل من الشرق والجنوب على البحر المتوسط ، ومن الشمال والغرب على المحيط الأطلسى ، وتفصل سلسلة جبال البرانس بينها وبين فرنسا ، ويفصل بينها وبين الطرف الشمإلي الغربى من قارة إفريقيا والوطن العربى مضيق جبل طارق والذى لا يتجاوز عرضه فى أكثر مناطقه مقاربة بين الشاطئين الأسبانى والمغربى خمسة عشر كيلو متراً.

ومعنى ذلك : أن تلك البلاد التى سماها المسلمون أو سموا الجزء الذى سيطروا عليه منها : " الأندلس " تُعد إقليماً ذا شخصية متفردة ، فهو أقرب أجزاء أوربا من إفريقيا أو هو أقرب الأجزاء الرابطة بين العالم الإسلامى والعالم المسيحى.

وتتنوع أرض هذه البلاد بين مجموعة من سلاسل جبال تحيط بها من الشمال والشرق والجنوب ، وبين هضبة كبرى هى هضبة "**مِستيا** " التى تكاد تغطى معظم مساحة (شبه الجزيرة) وبين الهضاب والجبال : مساحات من السهول الخصبة التى تجرى منها عدة أنهار ، **من أهمها** : النهر الكبير ، وهذا النهر يروى أكثر أراضى السهل الجنوبى ويمر بالمدينتين الأندلسيتين العظيمتين : قرطبة وأشبيلية ، ثم يصب غرباً فى المحيط الأطلسى .

ثم يلى الوادى الكبير شمالاً نهر وادى " **يانة** " ويسميه الأسبان كذلك باسمه العربى **فيقولون** : "**جواد يانا** " وبعد هذا النهر يأتى شمالاً نهر "**القاجة** "

obeikandi.com

ويسميه الأسبان " **التاخة** " و هو يمر بوسط الهضبة ، وتقع عليه مدينة طليطلة العظيمة ، ثم يأتى شمالاً نهر "**دويرة** " الذى يسمى عند العرب أحياناً بالوادى الجوفى ، والذى يطلق عليه الأسبان اسم " **دور** " وهو كسابقيه ينحدر إلي الغرب ويصب فى المحيط الأطلسى .

على أن هناك أنهاراً أخرى تسير عكس تلك الأنهار ، حيث تصب شرقاً فى البحر الأبيض ، وهى تلك الأنهار التى تروى الشرق والشمال الشرقى تقريباً .

وأهم تلك الأنهار : نهر إبرة ، الذى يروى إقليماً عظيماً من أقاليم الأندلس ، تبرز بين مدنه مدينة " **سُرْقسطة** " ومن الأنهار الشرقية كذلك: الوادى الأبيض الذى تطور اسمه على لسان الأسبان إلي "**جواد الأبيار**" وهذا النهر يروى جزءاً كبيراً من شرق الأندلس يمر بشمال مدينة (**بلنسية**) المدينة الأندلسية العظيمة .

ورغم هذا العدد الكبير من الأنهار فإن هناك مساحات شاسعة من الغابات والمراعى والأراضى الزراعية تعتمد فى ريِّها على الأمطار الشتوية الغزيرة ، مما يشير إلي وفرة المياه وانتشار الخضرة فى تلك البقاع الجميلة .

وعندما اجتاح المسلمون بلاد الأندلس سكنوا السهول ، ووديان الأنهار ، متجنبين الجبال الثلجية الوعرة الجرداء ، والأجزاء النائية من الهضبة الكبرى التى يغلب عليها طقس قارى حار شديد البرودة فى ليل الشتاء ، قاسى الحرارة فى نهار الصيف .

وفى هذه الأرض الطيبة ، الوافر جودها وعطاؤها زرع المسلمون أنواعاً من المحاصيل والفواكه والكروم التى درّت عليهم الخير الوفير ، وأعاشتهم فى رفاهية منعدمة النظير فى زمانها .

الأندلس قبل دخول المسلمين :

استقرت شعوبٌ كثيرة فى شبه الجزيرة الأيبيرية ؛ لكثرة موانيها ومراعيها الطبيعية ، ووفرة خيراتها واعتدال جوّها ، وذلك منذ فجر التاريخ ، فقد نزلت إليها من الشمال الأوربى البارد : قبائل الأيبريين ، فتسمّت باسمهم ، ثم عبرت سفن الفينيقيين والإغريق والرومان إليها عبر البحر المتوسط ، ثم هبطت إليها جماعات من الجرمان ، والنورماند والقوطيين الذين كانوا يحكمونها فى الوقت الذى عبر إليها المسلمون المضيق تحت ولاية الإمبراطورية الرومانية .

سر التسمية بالأندلس :

لم تُعرف الأندلس بهذا الاسم قبل فتح العرب المسلمين لها ، وإنما كانت تُعرف منذ القِدم . كما قلنا . باسم أيبريا نسبة إلي الأيبريين الذين كانوا من أقدم سكانها ، وعندما حكمها الرومان وتولوا زمام الأمور فيها أطلقوا عليها اسم " **أسبانيا** " ، ثم جاء "**الوندال**" وهم بعض القبائل الأوربية الشمالية ، فأغاروا على ممتلكات الرومان ومن بينها جنوب أسبانيا الذى عُرف منذ ذلك العهد باسم " **فندليسيا** " نسبة إلي " **الوندال** " أو " **وندلس** " كما هو الاسم فى صيغته الأجنبية .

وعندما فتح العرب هذه البلاد ، أطلقوا عليها اسم الأندلس بإبدال الواو همزة وهناك تفسيرات أخرى لتسمية الأندلس بهذا الاسم - كما يذكر بعض الباحثين . ولكن ما ذكرناه هذا هو الأقرب إلي الصواب .

وقد فُتحت الأندلس - كما هو معروف - على يد موسى ابن نصير ، وقائده المظفر طارق بن زياد ، وكان ذلك سنة ٩٢هـ ، وقد ظلت الأندلس تُحكم منذ الفتح الإسلامى بولاة من الخلافة الأموية فى دمشق ، وقد عُرفت هذه الفترة بفترة " **الولاة** " واستمرت حتى دخول عبدالرحمن الداخل إلي الأندلس ، وتأسيسه دولة بنى أمية فيما بعد أن سقطت دولتهم فى المشرق العربى على يد العباسيين .

وظلت الأندلس تحت قبضة المسلمين قروناً طويلة حتى دبّت بينهم الخلافات والنزاعات فتغلبت عليهم القوى المسيحية ، وصفّت وجودهم فى بلاد الأندلس ، وسُلّمت " **غرناطة** " إلي المسيحيين الأسبان ، وولى العرب وجوههم إلي بطاح المغرب منهزمين عام ٨٩٧هـ بعد أن ظلوا بها ثمانية قرون بنوا بها صروح حضارة ، وشادوا بها أمجاداً وتاريخاً .

****

obeikandl.com

الفصل الأول

معالم الحياة العامة في الأندلس

obeikandl.com

أولاً : " الناحية السياسية "

الفتح الإسلامى للأندلس :

وطأت ثرى الأندلس أقدام الولاة الأمويين فى عام اثنين وتسعين من الهجرة ، عندما حلَّ طارق بن زياد بتلك الأرض ، مخترقاً بحر الزقاق حتى التقى بجنده مع جيوش القوط وقتل " **لذريق** " ملكهم، وظلت قوافل النصر تنتقل بين المدن والأمصار حتى وصلوا إلي جبال البرانس يحدوهم الأمل فى اتساع رقعة الإسلام فى عهدهم والوصول من هذا المنطلق إلي آفاق وبلاد أرحب تعلوا فيها كلمة اللّه ، وتنتشر بين ذويها لغة القرآن الكريم .

وما يكاد العرب يتوافدون على تلك البلاد ، حتى تبدأ المنافسة على الولاية وتتملكهم الرغبة فى التسلط والزعامة ، فتنشأ العداوات التى تحركها القبلية بين العرب والولاة ، والعداوات العربية التى تدفعها العنصرية بين العرب والبربر ، حيث يجد البربر أنفسهم وقد استأثر العرب دونهم بالمدن والأرض الخصبة والحكم ، وما زالوا هم قابعون فى الصحارى والأرض الجدباء ، مع شعورهم بالضيق والغضب لبعدهم أيضاً عن الحكم .

فأخذوا يشعلون بين حينٍ وآخر نيران ثورةٍ أو فتنةٍ مع العرب تارة ، والحكام الأمويين تارة أخرى ، عسى أن يظفروا يوماً بما يريدون .

وفوق هذا كان هناك العداوة المتأصلة بين الأسبان المسيحيين الذين لجأوا مكرهين إلي شمال البلاد ، يتربصون ويتحينون الفرص للانقضاض على السلطة وتولى الأمر فى البلاد .

openkandil.com

وكذلك الفرنجة ممن زحفوا إلي ما وراء جبال البرانس ، بعد أن حِيل بينهم وبين مآربهم وأهوائهم ، وتظل فترة الولاة الأمويين فى قلق واضطراب ومنازعات داخلية وحروب خارجية لتأمين الحدود ، وبسبب ما بين العرب والمسيحيين فى أطراف البلاد الشمالية عام ١٣٨هـ حيث بدأت فترة الإمارة الحاسمة والعهد الجديد بزعامة عبدالرحمن الداخل : الذى رفض اضطهاد العباسيين بعد استيلائهم على الحكم ، ووصل إلي الأندلس يملؤه العزم على إنشاء دولة وحكم أموى جديد يناوئ به الخلافة العباسية فى المشرق .

وما يكاد يتولى الأمر حتى يجعل من قرطبة عاصمةً لدولته آنذاك، ويعمل جاهداً على أن تبدو هذه الفترة من أزهى فترات الحكم فى تاريخ الأندلس العربى ، وقد استطاع بالفعل أن يحقق للبلاد الأمن والاستقرار الداخلى والخارجى إذْ نراه يقضى على الزعامات القبلية التى كانت مصدر قلق واضطراب ، كما عمل على إشراك البربر ، وغير العرب من الموإلي ، مع العرب فى أعمال الدولة ، وقرّب بعضهم إليه .

ثم أخذ يسيّر الحملات العسكرية لتأمين حدود الدولة من خطر مسيحىّ الأسبان والفرنجة فى الشمال ، وما وراء البرانس ، وتبدأ بهذه الأعمال جوانب الخطر والفتن طوال فترة حكمه التى استمرت حتى عام ١٧٢هـ.

وتبقى الأمور كما تركها عبدالرحمن الداخل حين تولى القيادة من بعده: ابنه هشام الذى سلك نفس السبيل من الحزم والكياسة حتى يخلفه ابنه : الحكم فى عام ١٨٠هـ.

وتستمر البلاد مزدهرة آمنة طوال حكمه إلاّ ما كان من ثورة الضاحية [1] القرطبية والسماء بالريض ، إذ حدثت مشادة بين أحد الصقالبة (**صانعى السيوف**) واحد المماليك فقتله المملوك ، وكانت الفتنة التى كادت تودى بالحكم آنذاك ، حيث اندفع العامة فى ثورة عارمة إلي بيت الإمارة حاصروه من كل جانب ، وأوشكوا على دخول القصر والقضاء على الحكم ، لولا فطنته فى إرسال جماعات من أتباعه تُشعل النيران فى الريض ثم أُذيع هذا الخبر فى الثائرين حول الإمارة ، فاضطربت جموعهم واضطروا إلي العودة مسرعين لحماية عِرضهم وأموالهم وديارهم وبنيهم فاستغل الحكم ذلك وأمر جنوده بإعمال السيوف فى رقابهم وهم على حالتهم تلك ، حتى أوشكوا على الانتهاء منهم ، لولا هروب الجماعات الباقية تاركين ديارهم لجنود الحكم تهدمها وتدمرها على مَنْ فيها .

ثم تعود إلي البلاد الأندلسية نسمات الهدوء والاستقرار من جديد ، حتى عام ٢٠٦هـ حيث بدأت مرحلة أخرى لحكم البلاد ، **بقيادة عبدالرحمن " الأوسط "** وأبنائه والتى امتدت حتى عام ٣هـ .

ولم تسلم فترة حكم عبد الرحمن الأوسط من الأحداث الداخلية والخارجية أيضاً ، إذ تعود العصبية القبلية مرة ثانية ، وتنشب بين القبائل المضرية واليمنية صراعات دامية ، كما تنشب فى الداخل أيضاً : ثورة المولّدين فى " **طليطلة** " وثورات مشابهة لها من المسيحيين الأسبان (**القاطنين في شمال البلاد**) .

---

١) انظر هذه الواقعة فى كتلب نفح الطيب للمقرى جـ ١صـ ١٥٩ .

ويستطيع عبدالرحمن الداخل أن يُجهز على كل مواطن الخطر النابعة من مكامنهم ، ليواجه خطراً خارجياً ، زاحفاً من جيوش " **النورمان** " حيث دخلوا البلاد من الجهة الغربية ، فيوقف زحفهم ، ثم يمزق صفوفهم مما يضطر الباقين إلي الفرار والعودة بعد أن تلحق بهم خسائر فادحة .

وبذلك تنعم البلاد بأمن واستقرار من قائد آمن مستقر ، وحكومة ووزارة تظللها بجانب أميرها هيبة ووقار ، حتى عام ٢٣٨ هـ حيث يتولى ابنه : محمد الأمر من بعده ويواصل مسيرته وأمن البلاد فى الداخل ، حيث يقضى أيضاً على بعض الفتن والثورات المسيحية العنصرية .

كما يقضى على هجوم النورمان للمرة الثانية ، حيث هجموا على البلاد من الشرق والغرب والجنوب ، ولكنه يلقاهم ويقضى عليهم تماماً ، كما يقضى أيضاَ على خطر **ابن حفصون** : الذى أرهقت ثورته البلاد فى كل المجالات ، حيث استمرت ثلاث سنوات أخرى، وهى فترة حكم : المنذر بن محمد الذى عاجلته المنية قبل القضاء على ابن حفصون ، وبقيت حتى عهد أخيه : **عبدالله بن محمد** [١] الذى واجه صعاباً جساماً أخرى ، كان أبرزها تلك الفتنة العنصرية الخطيرة التى احتدمت بين العرب والمولدين حتى أصبح لكل منهما قائد وجنود يخشى بأسهم .

ثم تولى جماعات من ذوى النفوذ الحكم فى أطراف البلاد ، واستقلوا بإماراتهم **من أمثال** : بنى المهاجر فى " **سرقسطة** " وبنى ذى النون فى "**سنت ياقب**" وأخذت أوصال البلاد تتمزق وبدأت فى الضعف شيئاً فشيئاً ، **حتى أشرفت في عهد** : عبدالله ابن محمد على السقوط ، وفى عهد عبدالرحمن

---

[١]) البيان المغرب - لابن عذارى جـ٢صـ١٨٢ .

الناصر ، تسعد البلاد بتلك الفترة التى يحكمها حتى لتُعد أزهى فترات عهود الحكم والخلافة فى الأندلس ، حيث تولى الأمر شاباً يافعاً ، يشع الذكاء والحزم فى عينيه ويقود البلاد وهو فى الثانية والعشرين من عمره عام ٣ هـ .

ويبقى فى الحكم مدة خمسين عاماً ، يقضى خلالها على كل الثورات والفتن والعنصريات الداخلية ، كما يقضى أيضاً على محاولات الملوك المسيحيين فى الشمال من النَّيْل منه ، ويضطرهم إلي الخضوع له حتى طالب بعضهم بدفع الجزية[١] للسماح لهم بالبقاء فى حكم بلادهم .

ويتولى ابنه الحكم الأمر من بعده منذ عام ٣٥هـ فيقضى على محاولات الفاطميين الذين وفدوا من المغرب، وتمكنوا من الاستيلاء على بعض البلاد المتاخمة للشاطئ ، وذلك بعمل أسطول بحرى كبير يضطرهم إلي إخلاء أماكنهم وفرارهم إلي مصر ، ثم الاشتغال بأمورها بعد أن فتحوها ، إذ لم يفكروا بعد ذلك فى العودة إلي بلاد الأندلس ، كما تهيأت له فرصة القضاء على الأدارسة المغربيين الذين كانوا يؤيدون الفاطميين وكذلك على محاولات المسيحيين ، والملوك الناكثين للعهد حتى أمن مكرهم جميعاً وبذلك عادت الدولة قوية ، مهيبة ، شاسعة الرقعة ، موحدة الأقاليم ، واستحقت تلك الحقبة الزمنية فى الأندلس أن تسمى بالعهد الذهبى ، أو الحقبة الذهبية للحكم والخلافة هناك حتى عام ٣٦٥هـ .

ويبايع الخليفة : هشام بن الحكم بعد أبيه عام ٣٦٦ هـ ولم يكمل الثانية عشرة من عمره الأمر الذى يتيح الفرصة لرجل داهية طموح يضطلع بالأمر ويدبر

---

١) البيان المغرب جـ٢صـ٣٤٨ .

للاستئثار بالحكم ، بعد أن كان يعمل فى خدمة أبيه الحكم حاجباً ، ثم أُسند إليه الإشراف على أموال هشام ولى العهد .

استطاع ذلك الرجل واسمه : محمد بن أبى عامر أن يقضى على كل الكفاءات التى كان يراها عقبة فى طريقه ، حتى لم يسلم من خطره (قبل التمكن من كل شىء) صديق أو ابن ، وبذلك انتزع الحكم الفعلى للبلاد ، وقضى به لولديه (عبدالملك والمأمون) من بعده ، ولم يبق للخليفة هشام غير اسم الخلافة فقط [1] .

ولعل قوة شخصية ذلك الرجل هى التى مكنته مما أراد بالإضافة إلي كثرة انتصاراته فى الغزوات والفتوحات التى كان لا يعملها فوق قضائه على كل المناوئين له .

فأمنت الدولة فى عهده ، وظلت كذلك حتى مات فى إحدى غزواته ، وكُفّن فى نفس الكفن الذى كان يحمله معه دائماً ، وأمر أن يذر عليه تراب كان يجمعه مما يقع على ملابسه وجسمه من آثار تلك الغزوات ، وأوصى أن يُكتب على قبره هذان البيتان عام ٣٩٣ هـ :

آثـــاره تنبيـــك عـــن أخـــباره ... حتـــى كأنـــك بالعيـــان تـــراه

تـــاللّه لا يـــأتى الزمـــان بمثلـــه ... أبـــداً ولا يحمـــى الثغـــور ســـواه

وكان قد تلقب بالمنصور لكثرة انتصاراته ، حتى دالت دولة بنى عامر بعد صَلْب ابنه المأمون الذى كان قد انتزع ولاية العهد لنفسه من الخليفة هشام ، فآلم ذلك حفيد الخليفة الناصر : عبدالرحمن ، وهجم هو وعدد من الثائرين على الخليفة هشام أثناء غياب المأمون وأخذوا منه التنازل عن الخلافة ، وما هى إلاّ فترة وجيزة

---

[1]) الأدب الأندلسى للدكتور : أحمد هيكل صـ٢٦٤ وما بعدها .

حتى بدأت تشتعل فى البلاد فتنة طاحنة استطاعت أن تودى بالدولة الأموية ، ووحدة الأندلس جميعاً ، منذ عام ٣٩٩هـ وحتى عام ٤٢٢هـ حيث كان التطاحن على السلطان : سر ضياع الدولة كلها [١] .

فقد أخذ النزاع يدب فيما بين الأمراء الأمويين وبعضهم ، ثم بين الأمويين والبربر ثانياً ، مما أدى إلي الاستعانة بالمسيحيين فى الشمال ، وكان الثمن للجلوس على عرش الخلافة هو التنازل من أرض المسلمين عن بعض الحصون والمدن .

وبذلك أبيحت العاصمة (قرطبة) لجند الأسبان الداخليين مع المتغلبين وكانت البلاد قد تنأثرت أشلاء ، وبدت فى صورة إمارات ودويلات مستقلة ، لكل منها ملك ووزراء وشعراء ، وسُمى ملوك تلك الإمارات باسم ملوك الطوائف وأشهر دولها آنذاك :

"**بنو عباد**" فى أشبيلية ، و"**بنو الأفطس**" فى بطليوس ، وبنو "**ذى النون**" فى طليطلة .

ثم تتنابذ هذه الإمارات ، ويتطاحن الملوك من أجل اتساع النفوذ على حساب الآخرين ، والرغبة فى التطاول على سواهم ، فيستغل المسيحيون فى الشمال هذه الفرصة للضغط على من يلجأ إليهم ، أو توهمه بذلك خوفاً عليه من غيره .

ثم يُحكم المسيحيون القبضة على رقاب ملوك الطوائف ، منتهزين انغماسهم فى الملذات والشهوات ، والتخاصم والتنازع مع بعضهم تارة ، ومع

---

[١]) انظر فى هذا : الأدب الأندلسى للدكتور هيكل صـ٣٤٢ ـ ٣٤٨ .

openkandil.com

الآخرين تارة أخرى فتأخذ فى الانهيار أمام المسيحيين بعض دول الطوائف ، الأمر الذى يدفع بعض ملوكها الباقين **من أمثال** : المعتمد بن عباد ، إلي الاستغاثة بدولة المرابطين بمراكش فى المغرب فيسرع المرابطون بالاستجابة عام ٤٨٤ هـ ، ويهزمزن الأسبان ويخرجونهم من الأندلس .

ولكنهم يفضلون البقاء والاستيلاء على البلاد ، وعزل من شاءوا من ملوك الطوائف ، ثمناً لنصرهم على الأسبان .

ثم تحل محلَّها دولة "**الموحدين**" عام ٥٤١ هـ ، وتبقى الأندلس بطوائفها ملازمة لها حتى تضعف إمرتها ، وتعود إلي المسيحيين قوتهم ، فيأخذون من جديد فى الاستيلاء على المدن الأندلسية ، واحدة تلو الأخرى ، ولا يبقى أمام نفوذهم غير تلك المملكة الأخيرة والتى تقوقعت فى جنوب البلاد ، ومقرها " **غرناطة** " منذ عام ٦٢٩ هـ .

وتبقى لدولة "**بنى الأحمر**" القدرة على الصمود والبقاء فى وجه كل التيارات المناوئة للإسلام ، والراغبة فى القضاء على هذا المعقل الحصين نحو قرنين ونصف من الزمان يدافعون عنها ببسالة ، ويشيدون بها من القصور ما بقى مخلداً لهم إلي الآن (**قصر الحمراء في غرناطة**) حتى تنفذ كل الحيل فى الإبقاء على أمل المسلمين فى تلك البلاد .

وتُسلَّم " **غرناطة** " إلي المسيحيين الأسبان ، ويولى باقى العرب وجوههم إلي بطاح المغرب عام ٨٩٧هـ بعد أن ظلوا بها ثمانية قرون ، بنوا بها صروح حضارة ، وشادوا أمجاداً وتاريخاً .

ثانياً : الناحية الاجتماعية

تباينت العناصر الوافدة على أرض الأندلس منذ أحقاب بعيدة ، قد ترجع إلي ما قبل الميلاد ، كما استولت عليها روما فى أوائل القرن الثالث الميلادى ، واتخذت لها أسبانيا اسماً ، واللاتينية لغةً، والمسيحية ديناً.

وقد عرفنا فى الناحية السياسية ، كيف كان الجيش العربى الفاتح قبيل نهاية القرن الأول الهجرى مزيجاً من العرب والبربر ، وكذلك الموإلي الذين عبروا فى ركاب العرب إلي الأندلس ، وظلوا تابعين لهم حتى أُغفلت - فى الغالب- جنسياتهم ، والمماليك الذين كانوا يُجلبون من أماكن متفرقة من أوربا صغاراً ، ثم يباعون عن طريق النخّاسين فى أسواق أسبانيا .

ومع كل ذلك التباين العنصرى فى المجتمع الأسبانى ، فقد كانت له سمات متطابقة ومنسجمة فى عمومها ، وبخاصة بعد غلبة العنصر العربى الذى كان يأتى فى شكل موجات وجموع متلاحقة ، سرعان ما يتم امتزاجها، والمصاهرة بينهم وبين الأسبان الموجودين آنذاك ، فبدت سماتهم المتحدة على وجوه أبرز عناصر المجتمع الأندلسى ، وفى طباع أهم مكوناته البشرية .

ولم يكن غريباً أن تنعكس على المجتمع الأندلسى أثار الحياة السياسية المتباينة خلال تلك الفترة من الحكم العربى تقدماً ورخاءاً ، أو تخلفاً وانحداراً فى شتى المجالات .

كما أن الأمر الذى لا شك فيه ولا غرابة أيضاً ، **هو** : حرص كل الفئات الحاكمة من الأمراء أو الخلفاء أو الملوك على ازدهار وانتعاش الحياة الاقتصادية والعمرانية والفنية على مدى ذلك التاريخ العربى الطويل والحافل بالأحداث فى

تلك البلاد وإن تفاوتت نسب الازدهار والانتعاش فى كل فترة ومع كل حاكم من حكامها .

فحين يبدوا المجتمع الأندلسى فى فترة الولاة الأمويين السابقين والتى تقترب من نصف قرن (١٢- ١٣٨هـ) لا نرى جوانب الارتقاء ولا التقدم ولا حتى القدرة على الانتعاش ، وكان ذلك أمراً طبيعياً حيث كان المجتمع فى حالة اهتزاز وعدم استقرار.

كما لم يظهر لتباين العناصر وعدم امتزاجها حتى تلك الفترة أثر فى التفكك والانقسام ، وأيضاً كان لاختلاف الأهواء وغلبة العنصرية والعصبية على كل مكونات المجتمع ، ورغبة كل منهم فى السيطرة (أمام ولاة من الأمويين : همهم الأول هو إثبات قدراتهم على قيادة البلاد ، والقضاء على المنازعات) أثر كبير فى عدم الاهتمام بأى عامل من عوامل الازدهار ، أو الانتعاش فى مختلف مجالات الحياة ومقوماتها خلال تلك الفترة بل إن كل تلك الأمور كادت توقع المجتمع الأندلسى كاملاً فى حالة اضطراب نفسى أو حتى يحول بينه وبين ما يُرجى من تقدم وارتقاء.

ومن هنا يتبين لنا السر فى انتعاش كل الجوانب فى المجتمع بعد تلك الفترة حتى بدأت عوامل الاستقرار والهدوء ، والرغبة فى إنشاء مجتمع أندلسى جديد ، يعوّض بعد الحكام الأمويين فى المغرب ، ما فقدوه بقيام دولة بنى العباس على أنقاض دولتهم فى المشرق ، فأخذت البلاد فى الانتعاش الاقتصادى ، وبدأت آثار ذلك فى أعمال الإنشاء والتعمير والتجميل، حيث نجد عبدالرحمن الداخل المتوفى ١٧٢هـ ينشئ مسجد قرطبة الجامع على أرفع مستوى عمرانى فى عصره ،

مما أبقى على آثاره حتى وقتنا هذا آية فى جمال الدين ، ورمزاً جليلاً فى للحضارة الاسلامية القديمة ، كما يقوم ببناء " **مُنية الرصَّافة** " [١] ويقيم أيضاً سوراً للعاصمة ، وحدائق ، وأنواعاً من المزروعات المشرقية .

وفى عهد عبدالرحمن الأوسط المتوفى عام ٢٣٨هـ تزدهر الناحية الاقتصادية إلي درجة كبيرة من الرخاء ، مما دفع المؤرخين إلي الحديث عن ذلك وعن إصلاحاته وإنشاءاته وعماراته [٢].

وعندما تولى الحكم عبدالرحمن الثالث (الناصر) تظهر القومية الموحَّدة المؤتلفة لكل شعوب الأندلس ، ويزداد الأمن والاستقرار والإنتاج فى كل المجالات ، فتزداد إيرادات الدولة زيادة هائلة ، حتى يقال : إن ما كان يجئ من الكور والقرى لخزائن الدولة : خمسة ملايين وأربعمائة ألف دينار ، وأن ما كان يجئ من الأسواق ونحوها ، يبلغ خمسة وستين وسبعمائة ألف دينار ، وأن عبدالرحمن الناصر ، قد خلف بعد وفاته فى خزائن الدولة ثروات طائلة [٣] مما كان له أثر جليل على النهضة العمرانية ، وازدهار الفن فى بلاد الأندلس خلال تلك الفترة ،**حيث يُقال** :

إنه كان مولعاً بالبناء لاعتقاده بأنه يُخلّد صاحبه .

ولذا نجد أنه قد تم فى عهده بناء أروع ما عرفت الأندلس من قصور ومساجد حتى بلغت العاصمة (**قرطبة**) أزهى عصرها الحضارى والعمرانى آنذاك ، فازدحمت بالقصور المشيدة والمزينة بالحدائق والمجملة بالنافورات ، والمزودة بالحمامات الوفيرة حتى بلغت أعدادها فى عصره : خمسين ألف قصر للعظماء

---

١) مقر الامارة بالشمال الغربى من قرطبة .

٢) انظر : نفح الطيب ـ للمقرى ـ جـ١صـ١٦٢ وما بعدها ، والمغرب لابن سعيد صـ٤٦ وما بعدها والبيان للمغرب. لابن عذارى جـ٢صـ١٣٦ .

٣) نفح الطيب جـ٢صـ١٧٧ .

ورجال الدولة ، ومائة ألف بيت لرجال العامة ، وتسعمائة مسجد جامع ، وسبعمائة حمام [١] ، فى الوقت الذى كان بعض دول أوربا تعتبر النظافة رجساً من عمل الشيطان.[٢]

كما كانت مدينة الزهراء (**الواقعة شمال قرطبة**) من أعظم وأجمل أعماله الإنشائية حيث جعل فيها قصراً للخلافة ، ومساكن لرجال الحكومة ، ودوراً للحرس والجند ، ومسجداً كبيراً للصلاة والتعليم ، **ويقال** : أن أعمدة القصر ورخامه وتماثيل زينته ومواد زخرفية مجلوبة من (**القسطنطينية**) وقرطاجنة وشمال أفريقيا ، علاوة على ما أنتجته مدن الأندلس.

ولقد كان للخليفة فى قصره بمدينة الزهراء مجلس يسمى بمجلس الذهب ، لكون قبته وحيطانه قد صفحت بهذا المعدن النفيس ، وقد جعل فى هذا المجلس حوض عجيب أقيمت عليه تماثيل من الذهب المرصع بالدر النفيس ، وهو صور : الأسد ، والغزال التمساح والثعبان ، والعُقاب والفيل ، والحمامة ، وكلها تمج الماء من أفواهها فى الحوض([٣]) .

وفى عهد هشام الثانى ابن الحكم المتوفى عام ٣٩٩هـ نجد حاجبه (**المنصور**) الحاكم الفعلى للبلاد فى عهد هشام ، يهتم بالتعمير والبناء أيضاً إلي درجة يحاول بها الارتقاء عما تم فى عهد الحكام السابقين .

فما يُروى أنه بنى مدينة "**الزهراء**" (**ليقابل بها مدينة الزهراء التى بناها الناصر ، والتى كانت مقر الخليفة الأسمى هشام بن الحكم**) واتخذ

---

١) نفح الطيب جـ١صـ٢١٣

٢) كتاب قصة العرب فى أسبانيا (استانلى لين بول) ترجمة على الجارم صـ١١٩ وما بعدها .

٣) البيان المغرب جـ٢صـ٢٤٤ وما بعدها .

فى هذه المدينة حرسه وقصر حكمه كما أنشأ المُنْية العامرية لينافس بها "**منية الرصّافة**" التى بناها عبد الرحمن الداخل ، ويُقال أيضاً : أنه زاد فى بناياته وتوسعه المسجد الجامع فى قرطبة ، وأدخل إصلاحات قيمة فوق إنشائه أعداداً هائلة من القصور والقناطر وغيرها [١] .

وتستمر حركة الازدهار العمرانى وفن البناء حتى نهاية الحكم العربى للبلاد حيث يخلف العرب من ورائهم فى غرناطة قصور الحمراء التى ما زالت حتى وقتنا هذا كعبة للآثار العربية فى آخر معاقل المسلمين هناك .

أما من ناحية فن الموسيقى والغناء والطرب ، فقد كان أمراً طبيعياً أن يحرص على ايجاده الولاة الأمويون ، وبخاصةٍ بعد فترة القلق والاضطراب الاجتماعى الأول والتى انتهت ببداية عهد عبدالرحمن الداخل ، حيث يُحضر المغنيات والمطربات من المدينة ، ويُنشئ لهن داراً فى القصر ، تسمى " **دار المغنيات** " **من أمثال** :

" **فضل** ، **وعَلَم** ، **والعجفاء** ، **وقلم** " وغيرهن ممن وضعن بذور الموسيقى وفن الغناء فى أرض الأندلس العربية آنذاك .[٢]

وفى عهد عبدالرحمن الأوسط يستدعى "**زرياب**" تلمي اسحاق الموصلى البغدادى الذى يستقبله عبدالرحمن بعد وفاة الحكم الريض الذى توفى قبل وصول "ذرياب" ويمنحه أقطاعاً ذاغلة وافرة ، وبقربه منه ، ويجعله من خاصته .

يؤسس " **ذرياب** " أول مدرسة أندلسية فى فن الموسيقى والغناء وتعليم جموع من الأندلسيين لهذين الفنين فحسب وإنما تجاوز ذلك العمل إلي أشياء

---

١) نفح الطيب جـ١صـ١٩١ .
٢) المصدر نفسه جـ ٢صـ١١٨ وما بعدها .

أخرى كانت لها آثار فى حياة الشعب الأندلسى كله ، حيث بدأ تأثر الأندلسيين به فى زيِّه وملابسه لفرط أناقته ونظافته ، كما أخذوا عنه أيضاً طرق تصفيف الشعر وفرقه من وسط الرأس وعَقْصِه من خلف ، كما عوّدهم ارتداء الملابس البيضاء الخفيفة فى الصيف ، والفراء والأردية الثقيلة فى الشتاء .

كما عوّدهم أيضاً طرقاً كثيرة فى الطهى ، وتصفيف الطعام على الموائد ، وغير ذلك كثير من مظاهر التحضر.

كل هذا فوق ما أدخله إلي البلاد من جلال الفن الموسيقى ، وتخليصها مما كان قد دخلها مع المدنيات ، ومن جاء بعدهم من فنانى المشرق من قبله ، حيث أضاف وترين إلي الأوتار الثلاثة الموجودة فى العود ، فبقى التطور مرتبطاً باسمه هناك حتى وقتنا هذا .

وأمر هام يجب ألاّ نغفل عنه فى هذا النظام ، وهو أن شيوع اللهو والمجون وما يترتب عليهما من شرب الخمور ، كان نتيجة طبيعية لانتشار فن الموسيقى والغناء و الترخيص بعصير الكروم ، وتحسن الأحوال الاقتصادية ، وكثرة الجوارى والقيان ، وصغار الغلمان ، وبخاصة من الصقالبة " **الأتراك** " .

كما كان قد تورّط فى هذه الألوان من المجون والشراب عدد كبير من حكام الأندلس فى تلك الحقبة **من أمثال** : عبدالرحمن الأوسط ومحمد من أبى عامر (**المنصور**) : الحاكم الفعلى **في عهد الخليفة** :

هشام بن الحكم، وكان من حبه للرقص واللهو والشراب يتظاهر أمام الفقهاء والعلماء بالزهد والورع ، إبقاء على هيمنته ومكانته فى نظرهم ونظر العامة أيضاً.

ولم يكن غريبا أن يزداد هذا اللون من ألوان الفساد الخلقى ، والتحلل الدينى والاجتماعى وبخاصة فى دولة انقصمت وحدتها وأصبحت دويلات وطوائف وأحزاب ، تتناحر وتتصارع من أجل السلطة والزعامة ، وتلجأ لأعداء الدين للنصرة على إخوانهم المسلمين فضاعت هيبتهم وهانوا على أنفسهم فهانوا على غيرهم ، ويجعل الله بأسهم بينهم وتساقطوا كأوراق الشجر أمام ريح الأسبان العاتية وتلك الأيام نداولها بين الناس .

ثالثاً : " الناحية الثقافية "

تمهيد :

ازدهرت الحياة الثقافية والفكرية فى الأندلس خلال الحكم العربى الممتد أكثر من ثمانية قرون ، على الرغم مما أصاب البلاد آنذاك من الاضطراب السياسى فترات غير قصيرة وما كان يصحبه من القلق وعدم الاستقرار الناتجين من الفتن والثورات ومحاولات الأمراء للبقاء ، حيث لا مجال لبحث ، ولا ميدان لثقافة أو تدوين بل كيف يطلب مثل هذا من أفراد مجتمع مضطرب الحس والنفس ولا يدرى إلي أى مدى يستقر واقعه ، أو يرى ملامح لمستقبله .

فإذا ما تراءت بعض سمات الخير ، وظهرت فى هذا الأفق المعتم اشراقات ثقافية كان ذلك إيذاناً بما يمكن أن تكون عليه أحوال تلك البلاد من رقى علمى وازدهار فكرى .

وهذا بالفعل ما رأيناه في المرحلة الأولى التى ساد فيها الاضطراب وبدأ خلالها تفكك أوصال المجتمع ، حيث لم تظهر سوى أضواء خافته من المعرفة

obeikandl.com

وألوان متواضعة من الثقافة الدينية ، دخل بها إلي الأندلس بعض الصحابة والتابعين من أمثال:

" **المنيذر** " ، وموسى بن نصير" وغيرهما ، فكان لصاحبتهما الجموع من الجنود وغيرهم فى مساجد أشبيلية وقرطبة ، آثارها الفكرية التى كانت النواة للمدارس المتعددة الاتجاهات بعد ذلك فى تلك البلاد .

ثم تخطو الثقافة الأندلسية بعد ذلك أولى درجاتها بعد وصول عبدالرحمن الداخل إلي البلاد ، حيث أخذ فى تشجيع وتكريم العلماء الوافدين ([1]) إلي بلاد الأندلس فى تلك الفترة ، **ومن أمثال**:

ابن يحيى الليثى ، والغازى بن قيس الذى سمع من ملك موطأة ، وأبو موسى الهَرَوى وزياد بن عبدالرحمن وغيرهم ممن تطورت نسبياً على أيديهم جوانب الثقافة فى تلك الفترة حتى شملت القرآن الكريم حفظاً وتفسيراً وقراءات ، والأحاديث الشريفة وشروحها والسنة وما يتصل بها من علوم ، والفقه المالكى ، وغيره ، مما كان يدرس فى المساجد وبخاصة فى مسجد قرطبة والجامع والجامعة بعد بنائه هناك .

وما يكاد يحل القرن الثالث الهجرى ويتولّى أمر البلاد هناك : عبدالرحمن الأوسط حتى تثب الثقافة وثبات عالية فى عهده ، إذ كان محباً للعلم ، راغباً فى التزوّد ، حريصاً على ازدهاره وانتشاره فى مجتمعه الجديد فنجده ـ مع حبه لكتب الطب والفلسفة ـ يبعث رسله إلي المشرق لإحضار الكتب المفيدة النافعة ، وينقلها إلي قرطبة .[2]

---

١) تاريخ افتتاح الأندلس ـ لابن قوطية ـ صـ ٣٥

٢) نفح الطيب ـ للمقرى ـ جـ١صـ١٩٢ .

obeikandl.com

كما لم يكن حفيده : الأمير عبدالله بن محمد ، أقل منه رغبة فى المعرفة والمشاركة العلمية ، فوق أنه كان من المشتغلين بالعلم ، والمتصرفين فى فنونه ، والملمين باللغة العربية ، والعلماء بأسرار فصاحتها ، حتى قيل إن مجلسه كان أعمر المجالس الأدبية بأهل العلم والأدب والفنون .

وكذلك كان إبراهيم بن حجاج الذى استقل بأشبيلية محباً للعلم مشتغلاً به ومشجّعاً لذويه .

ولم تكن صنزف التشجيع راجعة فى تلك الفترة إلي حشد العلماء والأدباء فى مجالس الأمراء ، **وإنما كانت في** :

الحرص على نقل العلوم من بلاد المشرق ، واستقبال ما حمله المشارقة إليهم منها بالتبجيل ، كما حدث لإبراهيم الشيبانى البغدادى ، وأيضاً ما كان يحرص عليه الأندلسيون أنفسهم من النقل ، والتزود بعلوم المشرق ، كما كان يحدث من أمثال محمد بن ثعلبة [١] ، مما ترتب ترتب عليه ظهور أعداداً غفيرة من علماء الأندلس فى شتى مجالات الثقافة العربية والاسلامية ، كما يظهر منهم فى العلوم الطبيعية ، والفلسفية والعقلية والطبية ، والفلكية ، والرياضية كثيرين **من أمثال** : محمد بن مرة (الفيلسوف) وعبدالله بن خبيب (المؤرخ) ، وأحمد بن اياس ومسلم بن أحمد البلس **وغيرهم من أمثال** :

عباس بن فرناس الذى اخترع الزجاج من الحجارة ، وعمل آلة المثقال للأوقات وكان من أوائل من حاولوا الطيران فى التاريخ ، فوق أنه كان أديباً وشاعراً .[٢]

---

١) انظر نفح الطيب جـ٢صـ١١٥

٢) تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى جـ٢صـ١٦ وما بعدها .

وفى عهد الخلافة الحافل بالأمجاد السياسية تقفز الثقافة قفزات عظيمة ، حيث تهيأ لها كل الأجواء الملائمة فى عهد الخليفة : عبدالرحمن الناصر الذى استمرت فترة حكمه خمسين عاماً ، وكذلك ابنه : الحكم الذى خلفه ست عشرة عاماً ، وكانت كلها زاخرة بالعلوم والمعارف ، حيث التشجيع للعلماء القادمين من المشرق والمقيمين فى الأندلس وجلب الكتب من شتى الأقاليم والحثّ على البحث والتأليف ، وإنشاء المكتبات الكبيرة **والتى كان من أهمها** : مكتبة الخليفة الحكم بن الناصر ، التى بلغت مجلداتها أربعمائة ألف مجلد .

كما كان يكرِّم الباحثين ويهيئ لهم أماكن خاصة على نفقته للكتابة فيها داخل قصره ، وقد بلغ من شدة حبه للعلوم والعلماء أنْ أرسل إلي أبى الفرج الأصفهانى ألف دينار وطلب منه إرسال نسخة من كتابه " الأغانى" ، فأرسله إليه قبل أن يصل إلي العاصمة بغداد.

وقد أدى كل ذلك : إلي وفرة العلماء ، والمؤلفات فى كل المجالات إلي درجة لم تعرفها الأندلس من قبل ، مما جعل لها شخصية علمية مستقلة ، شاركت بها فى شتى صفوف الفكر وضروب المعرفة ، فظهر فيها كثير من أبنائها النوابغ فى مختلف العلوم وخاصة بعد أن منحهم الخلفاء الحرية الفكرية ، ولم يحجروا على آرائهم ، أو يقيدوا ميولهم كما ترجموا العلوم الفلسفية ، والطبيعية، ونقلوا بعض الكتب الإغريقية واللاتينية .[1]

ولقد كان لظهور الروح القومية فى الحياة الثقافية أثر بالغ فى تأسيس المدارس المتعددة الاتجاهات والمتباينة الفروع ، كما تلمع شخصيات أندلسية فى

---

١) طبقات الأدباء - لابن أبى أصيبعة - جـ٢صـ٤٧ .

الترجمة من أمثال : أبى عبدالله الخشبى ، وأبى عبدالملك القرطبى ، **وفي التاريخ من أمثال** :

أحمد بن محمد الرازى ، وابن القوطية ، وفى الفقه المالكى **من أمثال** : ابن أبى وليم ، ومن فقهاء الشافعية من أمثال: عثمان الكنانى ، وفى الفلسفة تظهر مدرسة ابن مرة وابان ابن عثمان وغيرهما .

وفي الطب يظهر أيضاً من الأندلسيين : سعيد ابن عبدربه ، وأحمد ابن يوسف ، وفى الرياضيات **يظهر أمثال** : عبدالله بن محمد وأبى بكر بن عيسى .

وتبقى الحركة العلمية مسيّرة لموكب الحياة هناك ، لولا ما يصيبها من بعض الفتور ، وفرض بعض القيود على الفكرة والمفكرين خلال الفترة التى أعقبت فترة الخلافة الزاهية للناصر وابنه الحكم .

ويفرض المنصور (**الحاكم الفعلى للبلاد في زمن هشام بن الحكم**) أمراً بإحراق كتب الفلسفة والمنطق ، والفلك ، رغبة فى تأييد الفقهاء له ، وإرضاء للفقهاء الذين كانوا يعتقدون بتحريم دراستها ، إذ لا يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم إلاّ زنديق ، ومن ثَمَّ لا يتركونه إنْ ثبت عليه شئ من ذلك ، وإنما يتابعون خطاه فى حياته ، فإن زل فى شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره إلي السلطان ، أو يثقتله السلطان تقرباً للعامة كما يقول ابن عذارى .(١)

وما عدا ذلك فقد ظلت فروع العلم ، واللغة والآداب ، نشطة لا تنطفئ جذوتها وإن غُطّيت إلي حين ، إذ سرعان ما تتأجج من جديد ، وبخاصة فى عاصمة البلاد

---

١) البيان المغرب . انظر جـ١صـ٣١٤

خلال فترة الخلافة ، وفى بالقى العواصم فى فترة ملوك الطوائف ، ثم فى غرناطة كآخر موطن للثقافة والمعارف العربية الإسلامية حيث ظلت هناك مُشعلة المسارج الفكرية ، بأدبة الأضواء العلمية ، على الرغم من الأحداث التى تناثرت بسببها أشلاء الأندلس العربى أكثر من ثمانية قرون . وحسب الأندلس فوق كل ما قدمه من فضل فى اتساع رقعة الإسلام ونشر علومه ومبادئه ، إنه كان المرتأ الوحيد الذى عبرت من فوقه مواكب المعرفة والعلوم إلي العالم الغربى ، **الذين لا نكون مبالغين إن قلنا** : إن أى تقدم وصلوا إليه حتى وقتنا هذا ، كان لنا فيه . دون شك . عن طريق الأندلس أوفى نصيب .

****

رابعاً : الناحية الأدبية

من المعروف أن الفتح العربى الإسلامى للأندلس لم يكن فتحاً سياسياً فقط لأن العرب الفاتحين لم يدخلوا بلداً من البلاد التى فتحوه لغوياً كما فتحوه سياسياً وأبدلوه من لغته الأصيلة لغتهم العربية ، وكان القرآن الكريم هو القبس الذى يضئ فى أثناء هذا الصنيع ، إذ لقنوه الأمم المغلوبة وبثّوه فى أبنائهم إعجاباً لا حد له بأدبهم الأصيل من شعر ونثر ، سواء فى ذلك من اعتنقوا دينهم الإسلامى ومن ظل على دينه القديم .

لذا فإننا لا نصل إلي القرن الرابع الهجرى فى الأندلس حتى نجد المسيحين هناك يهجرون اللاتينية فى طقوسهم الدينية ويستخدمون العربية مكانها . و هذا يعنى أن اللغة العربية انتصرت فى تلك البقاع ودخل أهل الأندلس كما دخل أهل

الأقاليم الأخرى فى نطاقها والتأدب بآدابها فأصبحت لغتهم الأدبية وأصبحوا يتخذونها وسيلة للتعبير عن عواطفهم ومشاعرهم ومكنون صدورهم .

وفى البداية تجدر الإشارة إلي الأندلسيين قد عاشوا فى بداية حياتهم الأدبية وبشائرها الأولى يقلدون النماذج الشرقية ، يسيرون على هديها ويتحدون بها كأنها جزء من حياتهم ومعتقداتهم حتى ليقول ابن بسام صاحب كتاب الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة مؤكداً" **تقليد أهل الأندلس للمشرقيين في أدبهم أنهم** "أبو إلاّ متابعة أهل المشرق يرجعون إلي أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلي قتادة ، حتى لو نعق لتلك الآفاق غراب أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنماً وتلو ذلك كتاباً محكماً"(١) .

ومن ذلك أيضاً كتاب العقد الفريد الذى ألّفه ابن عبدربه الأندلسى فهو لم يجمع فيه شيئاً من الآثار الأندلسية وإنما جمعه من الآثار المشرقية ويروى أن الصاحب بن عباد عندما أطلع على هذا الكتاب قال عبارته المشهورة " **هذه بضاعتنا رُدّت إلينا** " .

ومن ثم فليس هناك كتاب أدبى ولا رسالة نثرية ولا ديوان شعر ليس من كل ذلك عمل جيد إلاّ نقلوه إلي بلادهم فور ظهوره فى المشرق ومما نقلوه فى حياة أصحابه "**البيان والتبيين**" ورسالة "**التربيع والتدوير**" للجاحظ وديوان أبى تمام والمتنبى وسقط الزند واللزوميات ورسائل بديع الزمان ومقاماته ومقامات الحريرى .

---

١) الذخيرة لابن بسام المجلد الأول ص٢

openkandil.com

يضاف إلي هذا العمل التأثرى المهم طبيعة أهل الأندلس الرفيعة المحبة للشعر والأدب التى اكتسبوها من طبيعة بلادهم الساحرة الخلابة حيث الخضرة والماء والبساتين والأنهار والجبال والسهول والأجواء المعتدلة والنسائم الرطبة والروائح الطيبة.

هذا بالإضافة إلي اهتمام الملوك والأمراء والخلفاء بالأدب وأهله فشجعوا الشعراء والكتاب وبالغوا فى تكريمهم وبذل المكافآت والجوائز لهم فاستنفدوا مواهبهم فى مدائحهم ، واستخرجوا من أذهانهم ومخيلاتهم دُررا ثمينة وجواهر كريمة تنهض بالأدب وازدهر الشعر إلي أقصى حد ممكن حتى ليظن الإنسان أن كل أهل الأندلس أصبحوا شعراء وفعلا أصبحوا كذلك ، فياقوت الحموى فى معجم البلدان يروى أنه سمع ممن لا يحصون عداً أن أهل شلب . احدى مدن الأندلس . يقل بينهم من لا يقول شعراً حتى الفلاح منهم اذا مر به أحد وسأله عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحه عليه.

وبفضل هذه العوامل وغيرها ازدهر الأدب فى الأندلس وتطورت الحياة الأدبية هناك تطوراً ملحوظاً من عصر إلي عصر ومن جيل إلي جيل وسار لكل عصر شعراؤه وكتّابه وآثاره الأدبية المميزة له عن غيره .

ففى عصر الولاة : وهى فترة حروب ومنازعات ومنافسة على الولاية بين العرب والبربر وكان المجتمع فيها مفككاً متنافراً ، وعلى الرغم من هذه العوامل التى لا تسمح للعلم والثقافة والأدب بالازدهار فقد عرفت الأندلس بشريات العلم الأولى ونوعاً متواضعاً من الثقافة الإسلامية والمعارف الدينية من كتاب وسنة.

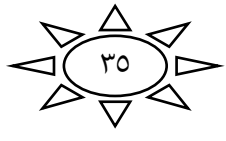

openkandil.com

وكان للأدب نصيب من هذه الثقافة الوافدة مع الفاتحين المسلمين حيث بدأ الشعر يُقرض ويُنشد فى المجالس الرسمية وغير الرسمية حيث حفظت لنا المراجع بعض أسماء الذين قاموا بقرض الشعر فى هذه الفترة منهم " **أبو الأجرب جعونة بن الصمة** " وهو من العرب الطارئين على الأندلس واشتهر بهجاء الصميل ابن حاتم رئيس القيسية هناك ، ثم اشتهر بمدحه بعد أن تمكن منه فعفا عنه وقيل أن هذا الشاعر كان فى مرتبة جرير والفرزدق .

وأنه لو أنصف لاستشهد بشعره وروى أن أبا نواس سئل عنه عباس بن ناصح الأندلسى وطلب أن يسمع شيئاً من شعر جعونة وذلك حين التقى أبو نواس بن ناصح فى العراق ، ورغم ذلك ليس بين الباحثين إلاّ القليل من شعره **ومن هذا القليل قوله** :

ولقد أرانى من هواى بمنزل ... عال ورأسى ذو غدائر أفرع

والعيش أغيد ساقط أفنانه ... والماء أطيبه لنا والمرتع

ومن شعراء تلك الفترة أيضاً أبو الخضار حسام بن ضرار وهو من أشراف القحطانيين فى الأندلس وكان والياً على الأندلس أيام هشام بن عبد الملك ولم يعثر لهذين الشاعرين على شعر كثير ويظن أنه كان هناك شعراء غيرهما ولكن لم يهتم بهم الأدباء والنقاد ولم تذكرهم المصادر أيضاً .

أما شعر هذه الفترة فيمكننا القول بأن هذه الأشعار لم يكن لها من الأندلسية إلاّ أنها قيلت فى الأندلس ، فهو شعر ينتمى إلي المشرق أكثر من انتمائه إلي الأندلس لأن الذين صاغوا عباراته وموسيقاه جاءوا مع الفتح العربى وينتمون إلي المدارس الأدبية فى المشرق ، ولذا فهو شعر يتفق بناؤه الفنى والبناء الفنى

للشعر العربى من حيث النظام العام للقصيدة العربية واللغة التى تميل إلي الخشونة والبداوة .

وموضوعات هذا الشعر هى موضوعات الشعر المشرقى من مدح وهجاء وحماسة وسماته هى سمات الشعر المشرقى من حيث العناية بجزالة اللفظ وفخامة العبارة والبعد عن العمق والتحليق فى عالم الخيال ، فهو أميل للخشونة والبداوة لما كان عليه الناس والظروف المحيطة بهم وبعد عن التحضر والتأثر والحياة الجديدة.

أما النثر في تلك الفترة فقد عثر منه على نماذج قليلة لكن ظروف الحرب والنزاع القبلى والمناسبات السياسية والدينية المختلفة كانت تستدعى وجود النثر ضرورة ولاسيما الخطابة ، وكانت شئون الفتح والحكم وعهود الصلح تستدعى الكتابة .

ومن كتاب هذه الفترة خالد بن يزيد كاتب يوسف الفهرى آخر ولاة بنى أمية على الأندلس وكان يكتب رسائله إلي عبد الرحمن الداخل حين علم بنزوله بالأندلس .

والمتوقع أن يتناول نثر هذه الفترة المبكرة شئون الدين والسياسة وأمور القبائل ويتناول العهود والرسائل والتوقيعات ، وسائر الأمور المتصلة بالحكم والتمكين لهؤلاء الفاتحين وتأكيد سلطانهم .

وخصائص هذا النثر هى نفسها خصائص النثر المشرقى الذى كان معروفاً فى عصر بنى أمية يميل إلي الإيجاز ويعنى بقوة العبارة ولا يعرف المقدمات الطويلة والرسوم المرعية والألقاب الطويلة مما عُرف بعد .

وقد نُسبت إلي طارق بن زياد خطبة مشهورة يحثهم فيها على القتال والجهاد فى سبيل الله ويبشرهم بالفتح وما سيصيبونه من غنائم وما سيغنمون به فى دنياهم وأخراهم **ويقول في أولها** :

" أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر وراءكم والعدو من أمامكم "

وهذا الأدب المنسوب إلي طارق بن زياد- شعره ونثره- مشكوك فيه كما يرى الدكتور / أحمد هيكل فى كتابه الأدب الأندلسى **لعدة أسباب منها** :

١. أن طارقاً كان بربرياً حديث العهد باللغة العربية .

٢. أن أسلوب الخطبة لم يكن معروفاً فى النثر العربى خلال الفترة التى نُسبت إليه الخطبة فيها ، ففيها محسنات بديعية وسجع مما عُرف فى العصر العباسى .

٣. أن الأدب المنسوب إلي طارق لم يأت فى المصادر القديمة القريبة من فترة الفتح وإنما جاء فى مصادر متأخرة جداً عن تلك الفترة .(١)

ومع بداية العصر الأموى وفد الكثير من الأمويين وأنصارهم إلي الأندلس ، وحملوا معهم قدراً من تراث المشرق الدينى والأدبى ، وعادت وفود الدارسين الأندلسيين من المشرق تحمل هى الأخرى قدراً من الثقافة والعلم والألوان الأدبية المتنوعة .

وقد ظهر فى أوائل هذا العصر الجيل الأول من الأدباء الأندلسيين الذين أنتجوا أدباً أندلسياً متميزاً ، وظهرت بعض الأدبيات إلي جانب الأدباء ، كما شارك الحكام أنفسهم فى هذه النهضة الأدبية الأندلسية ، وكان هذا الأدب يساير

---

١) أنظر تفصيل ذلك فى الأدب الأندلسى للدكتور / أحمد هيكل .

obeikandl.com

فى هذه الفترة اتجاه المدرسة المشرقية المحافظة فى غالب الأمر مع عدم الخلو من سمات خاصة تمثل أوائل ملامح الأدب الأندلسى وتتمثل هذه المحافظة فى اهتمام هذا الأدب . لاسيما الشعر . بالموضوعات التقليدية من فخر وحماسة ومدح ورثاء ، وفى إتباع منهج الأقدميين فى بنية القصيدة وفى نثر الصور من عالم البادية ، واستحياء الذاكرة والتراث أكثر من استحياء العصر والواقع .

ومن شعراء تلك الفترة عبدالرحمن الداخل نفسه الذى كان أديباً فى طبعه العربى الخالص ، وكان يقرض الشعر ومن ذلك قوله عندما رأى نخلة منفردة بالرصّافة فتذكر غربته ووحدته واتخذها معادلاً موضوعياً لنفسه الحيرى الوالهة الحزينة **فقال**:

تبـــدت لنـــا وســـط الرصـــافة نخلـــة
تنـــاءت بـــأرض الغـــرب عـــن بلـــد النخـــل
فقلـــت شـــبيهى فـــى التغـــرب والنـــوى
وطـــول التنـــائى عـــن بنـــى وعـــن أهلـــى
نشـــأت بـــأرض أنـــت فيهـــا غريبـــة
فمثلـــك فـــى الإقصـــاء والمنتـــأى مثلـــى

ومن شعراء هذه الفترة أيضاً "أبو الخشى عاصم بن زيد العبادى" :

وكان مداحاً لسليمان بن عبدالرحمن الداخل ثم للحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، ومنهم عباس بن ناصح الثقفى ومن النساء حسانة التميمية .

أما النثر فى هذه الفترة من العصر الأموى فكان مقتصراً على الخطب والرسائل والوصايا والمحاورات وما إليها من أغراض تقليدية وكان هذا النثر

فى مجمله يتسم بالجزالة التى تصل إلي حد الغرابة أحياناً ، لكنها جودة طبيعية ليس فيها من تكلّف المحسنات إلاّ ما جاء عفواً كذلك اتصف هذا النثر بالبساطة والتعبير المباشر والدخول إلي الموضوعات دون تمهيد ، وهو فى جملته شبيه بالنثر المشرقى التقليدى المعاصر له .

ومن ناثرى هذه الفترة " فطيس بن عيسى" و"خطاب بن يزيد" كاتبى هشام بن عبدالرحمن وابنه الحكيم ، وحجاج العقيلى كاتب الحكم وعبد الرحمن الداخل نفسه والحكم بن هشام .

ومن نثر تلك الفترة خطبة لعبدالرحمن الداخل فى معركته الفاصلة التى دخل بها الأندلس ، ورسالة إلي أحد الخارجين ووصية للحكم بن هشام لابنه عبدالرحمن وهى فى مجملها نماذج قليلة لا يمكن الحكم على نثر هذه الفترة من خلالها .

وفى فترة تالية من العصر الأموى تقدمت الأندلس أشواطاً كبيرة فى طريق الرقى الاجتماعى والحضارى لعوامل عدة أهمها الهدوء النسبى الذى صاحب إمارة عبدالرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨هـ) وتحمسه للإصلاح والنهوض وازدهار اقتصاديات البلاد وفى ظل هذا التقدم والرقى وثب الأدب وثبة جديدة وبدأ الشعر يعرف الاتجاه الجديد الذى اتجهه الشعر فى المشرق بزعامة أبى نواس ومسلم بن الوليد وأبى العتاهية وسائر المجددين ، وبدأ هذا الاتجاه يطرق موضوعات كالخمريات والغزل بالمذكر وبواكير شعر الطبيعة والزهريات .

وفي هذه الفترة من فترات الأدب الزاهية فى العصر الأموى ومع نهاية القرن الثالث ينشأ أعظم فن شعرى تميزت به الأندلس وأثبتت به قدرتها على

التفرد والاستقلال والابداع وهو فن الموشحات الأندلسية والتى سنُدرّس دراسة مستقلة فى هذا الكتاب .

ومن أعظم شعراء هذه الفترة "يحيى بن حكم الغزال" الذى خدم الأمير عبدالرحمن الأوسط وعاش بين سنتى (**١٥٦-٢٥٥هـ**) وسعيد بن سليمان جودى السعدى .

أما النثر فأصاب تقدماً هو الآخر وتطوراً ملحوظاً يتمثل فى زيادة عدد الناثرين ومن أشهرهم عبدالكريم بن عبدالواحد وسفيان ابن عبدربه وعيسى بن شهيد كاتب عبدالرحمن الأوسط وعبدالله بن محمد الزحإلي كاتب الأمير عبدالله بن محمد .

وأهم تطور النثر الأندلسى فى هذه الفترة تأثره بأسلوب عبدالحميد الكاتب المشرقى الذى لمع فى أواخر العصر الأموى ثم أسلوب الجاحظ الذى تألق فى أواخر العصر العباسى ووصلت كتبه ومؤلفاته إلي الأندلس .

وفى فترات تالية من هذا العصر نهض الدب أيضاً وسار فى طريق تقدمه ، وعرف بعض السماء البارزة فى عالم الشعر الأندلسى أمثال ابن عبدربه أبو عمر أحمد بن محمد صاحب كتاب " العقد الفريد " وكذلك ابن هانئ الأندلسى ، وفى الناحية النثرية ظهر ابن المنذر وابن جهور وابن فطيس والمصحفى .

وفى نهاية هذا العصر تأثر الدب بحالة القلق الاجتماعى والاستبداد السياسى والتقييد الثقافى والضعف العام الذى أصاب الدولة عموماً ولكنه عرف بعض الأسماء اللامعة أيضاً أمثال ابن دراج القسطلى وابن شهيد ، وفى النثر

التأليفى ظهر ابن حزم بسفره الخالد طوق الحمامة إلي ذلك مما شهده هذا العصر الخالد والمؤثر فى الحياة الأدبية الأندلسية .

وفى عصر الطوائف والمرابطين والذى انقسمت فيه الأندلس إلي دويلات صغيرة ويلاحظ أن الأدب ازدهر فى هذه الفترة أيضاً بفضل تشجيع الخلفاء والأمراء للشعر والشعراء وتنافسهم فى الناحية الأدبية والثقافية فوجدنا فى عصر الطوائف أمثال ابن زيدون وابن عمار وابن اللبانة وابن حمديس وابن عبدالصمد وعشرات غيرهم وفى عهد المرابطين عرف الشعر أسماء ابن خفاجة وابن الزقاق والأعمى التطيلى وابن بقى ، وبلغت فيه الموشحات مبلغاً عظيماً من النمو والرقى الأدبى ، كلما ازدهر فن الزجل أيضاً على يد قزمان .

أما من حيث الموضوعات فقد برز الرثاء من بين موضوعات هذا العصر وتنوعت موضوعاته وألوانه من رثاء للمدن ورثاء للأفراد ، وكان اللون الول وليد ما انتهت غليه حال الأندلس من ضعف الحاكمين وطمع المعتدين وتساقط بعض المدن والمعاقل .

وبرز أيضاً شعر الزهد فى هذا العصر بسبب الفوضى التى ازدادت فى حب الخلاص من غوائل الحياة الاجتماعية السيئة ، وكذلك نقمة بعض الافراد على حظوظهم من الدنيا ونجد البعض اتخذه مذهباً أخلاقياً وأدبياً ، كما اندفع بعضهم إليه بنزعة فلسفية وفكرية ومن أبرز شعراء الزهد فى هذا العصر ابن العسال وأبو اسحاق الألبيرى .

كما اتخذ فن الهجاء مكانه فى هذا العصر وكان من أبرز شعرائه ابن سارة والسميسر والأبيض واليكى ، كما اتخذ الاتجاه الفلسفى مكانة بتأثير أبى العلاء

المعرى وكان من المشاركين فيه ابن السيد البطليوسى وعبدالجليل ابن وهبون المرسى .

وطبيعى أن يكون الغَزَل ذا مكانة واضحة غنية عن الإشارة فى تلك البيئة الأندلسية الساحرة ، وفى هذا العصر المتنوع الأفانين المختلف فى المشارب والأهواء.

ومن الظواهر الأدبية الجديدة فى عصر الطوائف ظهور شخصيات نسائية تدور حولها قصص الحب وقصائد الغزل ، ومن أشهر تلك القصص قصة ابن السراج المالقى شاعر بنى هود مع جارية تسمى "**حسن الورد**" وقصة ابن الحداد مع صبية نصرانية والقصة الكبرى المشهورة فى الأدب الأندلسى قصة ابن زيدون المخزومى وولادة بنت المستكفى سليلة بيت الخلافة وابن عبدوس منافس ابن زيدون ، وكل هذا أدى إلي ظهور شعراء غزل كثيرين وعدم الاقتصار على شاعر غزل واحد كما فعل عمر بن أبى ربيعة مثلاً .

أما عن النثر فى عصر الطوائف والمرابطين فقد تعددت أشكاله بين رسالة وخطبة ومقامة ، وكانت أهم ظاهرة تغلب عليها جميعاً كما يشير الدكتور إحسان عباس هى اشتداد روح السخرية ومنح الموضوعات الصغيرة التافهة شكل الموضوع البطولى الجاد .

وجرت جميع الأشكال النثرية السابقة فى أكثر الحوال على نظام السجع والتفنن فى أنواعه تقليداً للمشاركة إلاّ من بعض وسائل ابن زيدون وبعض الكتاب الذين تركوا السجع فى كتاباتهم .

openkandil.com

ومن مشاهير ذلك العصر إلي جانب ابن زيدون محمد بن عبدالبر وابن الجد وابن القصيرة وابن أبى الخصال وكان معظم هؤلاء الكتاب عمد الحياة السياسية فى أيامهم .

وأخيراً: ظهرت المقامة الأدبية فى هذا العصر وكانت مقامات بديع الزمان ورسائله قد دخلت الأندلس فى أواخر العصر الأموى وجعل الأندلسيون يتذوقونها ويتأثرون بها ويحاولون النسج على منوالها ، وكان أول من حاول ذلك أبو عامر ابن شهيد صاحب رسالة " **التوابع والزوابع** " ثم أخذ الأندلسيون ينسجون على منوال الحريرى فى مقاماته .

وفى عصر الموحدين ازدهرت الحياة الأدبية ازدهاراً عظيماً بتشجيع الدولة للأدب والأدباء وإشعال روح التنافس بين الأندلسيين والمغاربة ومحاولة كل فريق إثبات تفوقه الأدبى والفنى ، كذلك تعددت بيئات الشعراء وزادت صلاتهم بالأدباء والعلماء ، وتعددت موضوعات شعرهم بطبيعة ذلك التعدد فى البيئات الأدبية .

وقد تعددت أغراض الشعر فى هذا العصر الموحدى فشملت المديح والشعر السياسى والغزل والطبيعة والخمر والمجون كما شملت الغربة والحنين والرثاء والشعر الدينى والهجاء والشعر التعليمى.

وكان أهم سمات ذلك الشعر الموحدى طلب الصورة الجديدة وتوليد المعانى المبتكرة والخترعة ، وتوفر عنصر الإغراب فى الصورة الفنية وتزيين الشعر بالمحسنات البديعية وذلك واضح من خلال النصوص الشعرية المختلفة التى حفل بها هذا العصر .

ومن أبرز شعراء هذا العصر ابن سهل الاسرائيلى والرصافى أبو عبدالله بن غالب وأبو البقاء الرندى صاحب المرثية الشهيرة فى رثاء الأندلس والتى يستهلها **بقوله** :

لكل شئ إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسانُ

هى الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمانُ

ومن أكبر شعراء هذا العصر الصوفى الكبير محيى الدين ابن عربى صاحب المذهب الفلسفى الخاص والفكر الصوفى المتميز.

كما برز فى هذا العصر عدد من الوشاحين الكبار منهم ابن زهر صاحب الموشحة الشهيرة :

أيها الساقى إليك المشتكى كم دعوناك وإن لم تسمع

ومنهم أيضاً ابن شرف وابن مالك السرقسطى وابن عتبة الإشبيلى وابن سهل وابن عربى وابن الصباغ ومعظمهم لهم دواوين شعرية ذات علامات بارزة فى الشعر الأندلسى .

أما النثر فى عهد الموحدين فى عصر الموحدين فكان من أبرز أعلامه أبو عبدالله محمد ابن عياش كاتب الخليفة الناصر الموحدى وهو عإلي الطبقة فى النثر الأندلسى كما يذكر ابن سعيد وأبو العباس الغسانى من كتاب الدولة الحفصية بتونس ، ومنهم أبوبكر بن هشام أستاذ ابن سعيد وأبو عبدالله ابن الآبار كاتب الأندلس الكبير وأبو الوليد بن الجنان وغيرهم .

وكانت موضوعات النثر الموحدى تجمع بين الرسائل الديوانية والرسائل الإخوانية التى تدعو إلي مجلس أنس أو زيارة صديق أو تصف روضة أو نهراً ، كما

openkandil.com

وجد نوع من الرسائل يتوجه إلي قبر النبى الكريم صلى الله عليه وسلم ، ونلمح فى النثر ميلاً إلي السجع والمحسنات البديعية والمعانى المولدة المخترعة أو بالأحرى نجد محاولات جاهدة للإتيان بجديد بعد أن تكررت المعانى وأوشكت على النفاد مع اقتراب النهاية السياسية واضمحلال الثقافة ونضوب الفكر والتطور.

أما العصر الغرناطى ، فعلى الرغم من كونه آخر عصور الأندلس فقد حفل بعدد كبير من العلماء والشعراء والكتاب ، ولا نستطيع أن نعطى صورة واضحة عن شعره ونثره ؛ لأنه لم تصدر حتى الآن دراسة خاصة تتناول شعره ونثره ، ومن ثم تكون دراستنا لهذا العصر من قبيل التجاوز ولاسيما أن مؤرخى الأدب الأندلسى لم يخرجوا لنا بعد الأجزاء الخاصة لهذا العصر.

ولذلك سنكتفى بالإشارة إلي بعض أعلامه كابن الحكيم الأندلسى أستاذ ابن الخطيب وأبى عبدالله بن لب وابن الخطيب الشاعر والكاتب وابن خاتمة الأنصارى صاحب الشعار الصوفية والمدح النبوى وابن زمرك تلميذ ابن الخطيب وغيرهم.

أم عن الموضوعات الأدبية إلي حفل بها العصر الغرناطى فطبيعى أن تكون امتداداً لما كان فى عصر الموحدين وأن يكون الشكل أو الضياغة الفنية كذلك اللهم إلاّ أن يكون هناك تأثير بديعى يهب من المشرق وكل ذلك أحكام تقريبية حتى يتفرغ لهذا العصر من يدرسه.

تلك أهم ملامح الحياة الأدبية وتطورها فى البيئة الأندلسية راعينا فيها السهولة واليسر والبعد عن الغموض والتعقيد ومررنا مروراً سريعاً على فترات العصر الأندلسى وعصوره المختلفة وتركنا كثيراً من التفصيلات والدقائق فى شرح

الأساليب وطرق الصياغة والسمات الفنية لأننا أردنا فى المقام الأول أن يكون لدى الطالب تصور أدبى موجز وسريع لعصور الأدب فى الأندلس والتعرف على أهم التطورات الأدبية والموضوعات الشعرية والنثرية الشائعة فى كل بيئة مع ذكر أشهر الأعلام من الشعراء والكتاب وأبرز السمات والمذاهب الشعرية فى إجمال شديد وتحديد واضح وأسلوب سهل ميسور.

****

obeikandl.com